الواقع المُصنّع وبرمجة العقول

رئيس التحرير
■ د. محمد محمود مرتضى

مقدِّمة

ثمَّـة تغيّر هائل يجري في هـذا العالم على مسـتوى الصراعات؛ حيث غـدت العقول هدفًا للاحتلال هي الميدان الأهمّ، فلم يعد الانتصار يُقاس باحتلال الأرض، وإنما باحتلال الإدراك.

فنحـن أمام حـروب من نوعٍ جديـد؛ حيث تُخـاض بالمفاهيم، والصـور، والمصطلحات، والسرديَّات. إنّها حروب السـيطرة على الوعي؛ حيث يصبح تشـكيل الـرأي، وصناعة الواقع، وتوجيه القناعات، جزءًا من معركة أشد فتكًا من الحرب التقليديَّة؛ لأنّها تُمارَس من الداخل، في صمتٍ ونعومة، دون أن تترك وراءها دماء، بل تخلّف إنسـانًا مُفرَّغًـا، راضيًا بقهره، ومدافعًا عن سجّانه.

لقد تغيَّرت بنية السيطرة: فبدلاً من القمع، هناك الإقناع، وبدلاً من الوصاية الفجَّة، هناك صناعة الرغبة. لم تعد الهيمنة تفرض بالقوة، بل تُزرع في النفوس عبر الإعلام، والتعليم، والفنّ، والتقنيَّة، وحتى الدين حين يُفرَّغ من مضمونه ويُعاد تصنيعه. ووسـط هذا المشهد، أضحت المعركة بين وعي مستنير، ووعي مبرمج، بين من يرى العالم بعينيه، ومن يُملى عليه كيف يراه.

وفي قلـب هذه المعركة، تلعب النخب الثقافيَّة دورًا محوريًّا: فمن كان يُفترض بهم أن يقودوا

الوعــي، أصبح كثير منهم يُعيد إنتاج أدوات الســيطرة بلغةٍ «عقلانيَّــة»، أو خطابٍ «حداثي»، أو تحليلٍ «موضوعيّ» يخفي في طيّاته تسليمًا بالهزيمة، وتطبيعًا مع المستبدّ.

أولًا: تحوّلات أدوات السيطرة

١ - من العنف الصلب إلى الهيمنة المعنويَّة

عندمــا تحدث (ميشــيل فوكــو-Michel Foucault) عن انتقال الســلطة من نمــوذج القمع الخارجــيّ إلى التحكّم الانضباطــيّ الداخليّ، كان يصف ديناميكيَّة حاضرة آخذة في الترسّــخ. لقد شــهد القرن العشرون تحوّلًا جذريًّا في أساليب الســيطرة؛ إذ لم تعد تكتفي باستخدام القوّة المسلحة، وإنّما بدأت تتحوّل إلى آليّات تطويع رمزيَّة، وهندسة للسلوك الاجتماعيّ والمعرفيّ، ما أدّى إلى ما يمكن تسميته بـ "الاحتلال غير المَرئيّ" للعقول.

وفي حين كان مفهوم "الاســتعمار" في القرن التاسع عشر يرتبط مباشرة بالغزو العسكريّ المباشر، فقد أصبح في العالم المعاصر يُدار بالثقافة، والإعلام، والتمثيلات المعنويَّة، وقواعد البيانــات، ومنصَّات التواصل، وكلّها أدوات تعمل على إعادة تشــكيل تصوّرات الناس عن أنفســهم والعالم، دون الحاجة إلى اســتخدام جيوش فعليَّة. فالحــروب اليوم تُخاض على مســتوى الصور أكثر من الأجســاد، وهذا دليل على تفوق القوَّة المعنويَّة على القوة الماديَّة في صناعة الإدراك الجمعيّ للواقع، بل في صناعة "الواقع" نفســه باعتباره تمثيلًا، لا حقيقة مباشرة.

٢ - الرقابة الناعمة

إنّ الانضبــاط اليــوم يُمارَس مــن خلال مصفوفــات برمجيَّــة تراقب تحــرّكات الأفراد على مــدار اللحظة، وتعيد توجيههم دون أن يشــعروا. وهو ما بات يُعرف بـــ «الرقابة الناعمة» (Soft Surveillance)، والذي تجاوز مفهوم "الأخ الأكبر"، الذي تحدث عنه (جورج أورويل - George Orwell)، إلى نموذج أكثر تعقيدًا وأشد خفاءً، وهو التحكّم الذاتيّ المبرمج.

فعبر الذكاء الاصطناعيّ، والتعلّم الآلي، وخوارزميَّات التوصية، بات يُعاد تكوين السلوك الإنسانيّ من خلال ما يُعرض عليه، وما يُخفى عنه، وما يُقترح له، دون أن يشعر أنه خاضع لتوجيه. فقد أصبحت الخوارزميّات أدوات هندسة للوعي، لا مجرّد تقنيّات عرض أو تصنيف. وهذا ما حذّر منه (موراي شاناهان-Murray Shanahan) في كتابه "الذكاء الاصطناعي ومستقبل الإنسان"، حين يشير إلى أنَّ الآلات الذكيَّة لا تكتفي بتنفيذ المهام، بل تُعلّم الإنسان كيف يفكر، ومتى يشك، وماذا يختار[1].

وهكذا، فإنّ الإنسان المعاصر يعيش داخل شبكة مراقبة لا يدرك وجودها؛ لأنَّها مصمَّمة كي تبدو كأنّها تمنحه الحريَّة. لكنّه، في الحقيقة، يسير وفق مسارات محدَّدة مسبقًا: ما يشتري، وما يقرأ، وما يُغضبه، وما يُضحكه، كلّها عناصر تُدرس وتُبرمج ضمن ما يُعرف اليوم بـ "اقتصاد الانتباه" (Attention Economy).

٣ - احتلال الوعي بدل الأرض

لقد أصبحت وسائل الإعلام سلاحًا أكثر فتكًا من الطائرات دون طيَّار؛ لأنّها تقتل البصيرة. فبثّ الصور، وتكرار الشعارات، وتحديد المفردات، وصناعة النجوم، كلّها تقنيات تستهدف بنية الإدراك البشريّ، وتعمل على تحويل الاستلاب إلى وعي زائف، والهيمنة إلى قناعة؛ إذ لا يختلف اثنان اليوم على أنّ أفضل أشكال الرقابة، هي تلك التي تجعل الناس يعتقدون أنّهم أحرار في حين أنهم خاضعون تمامًا لمصفوفات التوجيه الخفيّ[2].

بل إنّ الإعلام لم يعد مرآة للعالَم، بل صانعًا له. فمن يملك الإعلام اليوم، لا يُخبر الناس بما يجري فقط، بل يُخبرهم كيف يجب أن يشعروا حيال ما يجري. فهو إذاً، لا ينقل "الواقع"، وإنما ينتج واقعًا بديلاً، يُزرع في وعي الجمهور، ويُقدَّم لهم باعتباره الحقيقة المطلقة. ولهذا، فإنّ الحروب الحديثة لم تعد تتطلّب إقناع العدوّ بالقوّة، وإنما إقناع الضحيَّة بأنّ الاستسلام فضيلة.

---

1 - See: Murray Shanahan: The Technological Singularity, p. 117.

٢ - راجع: نعوم تشومسكي: السيطرة على الإعلام، ص١٩.

٤ - التعليم جهاز أيديولوجيّ لإعادة الإنتاج

في تحليله للمؤسّسات الاجتماعيَّة، يُدرج (ألتوسير-Althusser) النظامَ التعليميّ بوصفه أحد أهمّ "أجهزة الدولة الأيديولوجيَّة" (Ideological State Apparatuses)؛ لأنّه لا يقوم بنقل المعرفة فحسب، وإنّما يُعيد إنتاج البنية الرمزيَّة التي تخدم النظام السائد؛ إذ إنّ المدرسة لم تعد مكانًا للتفكير الحُرّ، بقدر ما هي فضاءً لصياغة الطاعة والانتماء للمنظومة المُهيمنة.

لا يقتصر هذا التحليل على المجتمعات الغربيَّة، بل يمتدّ إلى كثير من دول العالم التي استنسخت المناهج والمفاهيم التربويَّة الحديثة دون مساءلة. فالمتعلّم اليوم يتخرّج محمَّلاً بـ "البداهات" الليبراليَّة: الحُريَّة بمعناها الفردانيّ، والتقدّم بمعناه الغربيّ، والعدالة بوصفها حيادًا قانونيًّا، إلى غير ذلك من القِيَم التي لا تُقدَّم بوصفها مفاهيم قابلة للنقاش، وإنّما بوصفها حقائق كونيَّة. وقد حذّر (باولو فريري-Paulo Freire) من هذا التلقين البنكيّ للمعرفة، مشيرًا إلى أن التعليم في ظلّ الهيمنة يتحول إلى عمليَّة إيداع معرفيّ، يُنتَظر من الطالب أن يُكرّره دون نقد[1]. وهو ما يؤسِّس لجيلٍ يُعيد إنتاج الواقع بدل تغييره.

٥ - سياسات الفضاء الرقميّ

لقد أحدثت الرقمنة قفزة نوعيَّة في طبيعة السيطرة؛ إذ لم تعد مرتبطة بالمكان والحدود السياسيَّة، وإنما تغيّرت لتصبح معركة سيادة تدور في الفضاء الرقميّ. فالمنصَّات العالميَّة مثل: (X)، (Facebook)، (Google)، وغيرها، باتت تتحكَّم بسيرورة المعرفة والمعلومة. والمخيف في الأمر أنّ هذا التحكم يُمارَس عبر آليّات غير خاضعة للمساءلة العامَّة، ولا للشفافيَّة الديمقراطيَّة.

فعندما تُخفي محرّكات البحث نتائج معيّنة، أو تُروّج لرواية دون أخرى، فإنها تؤثّر في اتجاهات الوعي العالميّ دون حاجة إلى رقابة بوليسيَّة. وهذا ما يجعل السيطرة على الإنترنت اليوم شبيهة بالسيطرة على المجال الجوي في الحروب العسكريَّة: من يتحكّم به، يتحكّم بكلّ ما تحته.

وتؤكد (شوشانا زوبوف-Shoshana Zuboff)، في كتابها عصر رأسماليَّة المراقبة، أنّ الشركات

1 - Paulo Freire: Pedagogy of the Oppressed, p. 72.

التكنولوجيَّة لا تكتفي بجمع البيانات، بل تستثمر في إعادة توجيه السلوك البشريّ نفسه، بشكل يضمن الطاعة الاستهلاكيَّة، والاستقرار الاجتماعيّ في الحدود المرغوبة[1].

٦ - السيطرة الناعمة والهندسة الاجتماعيَّة بلا جدران

هذا نمط جديد من السيطرة، الذي يعتمد على الإقناع لا الإكراه. فحين تُقنع الشعوب بأنّ النموذج الليبراليّ هو الأفق الوحيد الممكن، وأنّ النجاح هو في تبنّي القِيَم الغربيَّة، وأنّ التحرّر لا يكون إلا بالتخلّص من الدين والتقاليد، فإنّك تكون قد ربحت الحرب دون أن تطلق رصاصة واحدة. إنّها حرب تجري في "المعنى"، لا في الجغرافيا، وهي أخطر من الاحتلال العسكريّ؛ لأنّها تُخضع الإنسان من داخله، لا من خارجه. ويمكن ملاحظة أنّ أخطر ما تفعله وسائل السيطرة الحديثة هو تحديد نطاق النقاش سلفًا، ثمّ السماح بقدر من الجدل داخله، بحيث يظنّ الناس أنّهم أحرار في التعبير.

إنّ تحوّل السيطرة من أدواتها الصلبة إلى أدوات ناعمة نقل الصراع إلى مستوى أعمق وأخطر: صراع على الوعي نفسه. فالإنسان المعاصر قد لا يشعر بأنّه محتلّ أو خاضع، لكنّه في كثير من الأحيان يتحرّك ضمن منظومة مصمَّمة، تختار له ما يراه، وتحدّد له كيف يفكّر، وتؤطّر له العالم بحيث لا يرى خارج الإطار. وهذا ما يجعل معركة اليوم معركة ضدّ التوجيه الخفي، وضدّ الاحتلال المعنويّ للذات، وهي لا تقلّ أهميَّة ولا قسوة عن أي معركة بالسلاح.

إنّ ما سبق يمهّد للانتقال إلى سؤال أعمق: كيف يُصنع هذا الواقع الذي يُفرض علينا؟ ومن يملكه؟ وكيف تتواطأ الأدوات الثقافيَّة والإعلاميَّة والتعليميَّة لإعادة إنتاج الهيمنة؟

ثانيًا: صناعة الواقع وإنتاج الزيف – كيف تُبرمَج العقول؟

١ - من الواقع إلى التمثيل: تحوّل الحقيقة إلى سرديَّة

ذكرنا سابقا بأنّ من أخطر ما تنتجه حروب السيطرة على الوعي أنّها لا تكتفي بتوجيه التفكير،

1 - See: Shoshana Zuboff: The Age of Surveillance Capitalism, p. 315.

بل تعيد صياغة الواقع نفسه داخل الذهن. فما يراه الإنسان اليوم يُغربَل عبر شاشات، ومنصّات، ومحرّكات بحث، وأساليب عرض تُنتج له "نسخة" من العالَم. وهذا يعني أنّ السيطرة لم تتعلَّق بالكذب الصريح، وإنّما بالتحكّم فيما يراه الناس بوصفه الحقيقة.

من هنا، ينبغي التمييز بين الواقع والتمثيل المفرط (hyperreality)؛ حيث تصبح "الوقائع" التي يتلقّاها الإنسان مختلقة بالكامل، لكنّها مقنعة لدرجة أنّها تحلّ محل الواقع نفسه.

ومن هنا، فإن من يتحكّم بالإعلام، والإعلان، ووسائل التواصل الاجتماعيّ، لا يُخبر الناس بقدر ما هو يُعلّمهم كيف يفهمون العالَم، وكيف يشعرون، وماذا يصدّقون. وهذا هو جوهر الحرب على الوعي.

٢ - التضليل الناعم: صناعة الشكّ وتآكل الحقيقة

في الأزمنة الغابرة، كان التلاعب بالحقيقة يُمارس عبر الكذب المباشر أو الإخفاء، لكن تقنيّات السيطرة الحديثة تستخدم استراتيجيَّة أكثر تطوّرًا: خلق بيئة من الشكّ المزمن؛ بحيث لا يعود الناس يثقون بأيّ شيء. فالطغاة المعاصرون لا يكذبون ليُقنِعوا، بل ليخلقوا بيئة يُصبح فيها كلّ شيء مشكوكًا فيه، فلا يثق الناس بشيء، ويصبح الطاغية هو مصدر الحقيقة الوحيد[1].

إنّ الإعلام الحديث يمارس هذا النوع من التضليل الناعم عبر طوفان المعلومات (information overload) الذي يُغرق المتلقّي في سيل من الأحداث والتحليلات والصور المتناقضة، بحيث يُصاب الذهن بالتشويش، ويصبح من الصعب تمييز الحقيقة من الزيف. هذا ليس "تضليلاً" بالمعنى التقليديّ، وإنّما هو إرهاق للحقيقة وإغراق للعقل.

٣ - تسييس اللغة وتوجيه الإدراك

هذا وتلعب اللغة دورًا أساسًا في تشكيل الإدراك، وتُستخدم بوصفها أداة مركزيَّة في حروب السيطرة على الوعي؛ إذ إنّ الكلمات ليست مجرّد وسائط محايدة، وإنّما أدوات لتأطير الفهم

1 - See: Timothy Snyder: On Tyranny: Twenty Lessons from the Twentieth Century, P. 65.

وبناء الموقف. وهذا ما يعرف في علم تحليل الخطاب بـ"استراتيجيات الإطار" .(Framing Strategies) فعلى سبيل المثال:

- تسمية مقاومة الاحتلال بـ"الإرهاب"
- أو تسمية الاستسلام بـ"الواقعيَّة"
- أو اعتبار الاستعمار الثقافي "عولمة"

هـذه كلّها أمثلة على تزييف المعنى عبر اللغـة، وهو ما يجعل الجمهور يتقبّل الباطل بوصفه تطوّرًا، وينفر من الحقّ؛ لأنّه قد قُدِّم له بعبارات منفِّرة.

في هـذا السـياق، تُسـتخدم المصطلحات بمكـرٍ بالغ: فالاحتلال يُسـمّى "حربًـا وقائيَّة"، والاستعمار "مَهمَّة إنسـانيَّة"، والاسـتغلال "تنمية"، والقهر "حماية للحقوق"، وهكذا تُطمس الحقائق في قوالب اللغة نفسها.

٤ - استراتيجيّات الهيمنة السرديَّة

على أنّ السرد هو أحد أهم أدوات تشكيل الوعي الجمعيّ. فمن خلال الأفلام، والمسلسلات، والروايات، والنشرات الإخباريَّة، يُعاد تشـكيل الذاكرة، وتُبنـى القِيَم، ويُحدّد العدوّ والصديق. فالسرد لا يقتصر على إخبارنا بما حدث فحسب، وإنّما يُقدِّم لنا "طريقة" لفهم الحدث.

فقد أدركت القوى الكبرى أهميَّة السرد مبكرًا، فأنشأت مؤسّسات ضخمة لإنتاجه وتصديره، أبرزهـا هوليوود، التي لعبت دورًا محوريًّا في تسـويق النموذج الأمريكي، وتجميل العسـكرة، وتشـويه الآخر، وفرض الهيمنة الثقافيَّة. وقد كان ذلك من أهمّ مَهام الاسـتشراق، الذي لم يكن فقط بناءً معرفيًّا، وإنّما سرديَّة كبرى، شكّلت نظرة الغرب للشرق[1].

وعلى هذا المنوال، فإنّ كلّ خبر هو قصّة، وكلّ تحليل سياسيّ هو حكاية، وكلّ عرض إعلاميّ هو نصّ مؤطَّـر فكريًّا، وموجَّه لهدف معين. من هنا، فإنّ المعركـة الحقيقيَّة تتعلّق بمن يرويها، وكيف يرويها، ولمصلحة من تُروى.

١ - راجع: إدوارد سعيد: الاستشراق، ص٣٤.

٥ - تسليع الوعي: بين الإعلان والتمثيل

من ملامح هذه الحرب ما يُعرف بـ«تسليع الوعي» (Commodification of Consciousness)، أي تحويل الأفكار والمواقف إلى منتجات تُباع وتُستهلك، تمامًا كما تُباع السلع. فالشخصيَّة العامة أصبحت "علامة تجاريَّة" قابلة للتسويق، والمعرفة تحوّلت إلى "محتوى" خفيف يُستهلك سريعًا.

فالإعلانات والمحتوى الرقمي والنجوم الجدد على منصات التواصل جميعهم يُسهمون في تحويل القضايا إلى مجرد اتجاهات "ترنديَّة" قابلة للنسيان بمجرد زوالها من الشاشات. وهكذا، يفقد الوعي عمقه وزمنه وصلابته، ويتحوّل إلى تفاعل لحظي يُقاس بعدد الإعجابات والمشاهدات.

٦ - تشويه الرموز وتفكيك المعاني

ضمن مشروع السيطرة على الوعي، تُستهدف الرموز الجامعة، والقيم الكبرى، والشخصيات التاريخيَّة المقاومة، إما بالتشويه أو بالتفريغ. فالرمز الديني يُقدّم بوصفه رجعيَّة، والرمز المقاوم يُصوَّر باعتباره متطرّفًا، والبطولة تُختزل في الشهرة، والكرامة تُستبدل بالنجاح المادي.

هذا التفكيك المعنويّ غالبًا ما يجري عبر إعادة صياغة صورة الرمز في المخيال العام؛ حيث يفقد قيمته وقدرته على الإلهام، دون أن يُمنع رسميًّا. إنّها استراتيجيَّة ناعمة في اغتيال الرموز ومعانيها. فقد ننهزم في معركة، لكن عندما نقبل برواية العدوّ عنها، فإنّنا نضع أنفسنا أمام خسارة الحرب، لا المعركة فحسب.

٧ - من نقد الإعلام إلى تفكيك المنهج

إنّ مقاومة هذه الحرب لا تقتصر على كشف كذبٍ هنا أو تحيّزٍ هناك، بل تتطلّب تفكيك المنهج الذي تُصنع به الرؤية. فلا يكفي أن نردّ على رواية معيّنة، وإنما لا بدّ من تفكيك منطق صناعة الروايات ذاته: من يملك المنصّة؟ ومن يُحدّد الموضوع؟ ومن يُقرّر ما هو مُهمّ وما هو هامشي؟

الوعـي الحقيقي يبـدأ من هنا: من تفكيك بنية السـلطة المعرفيَّة والإعلاميَّـة، لا من الجدل داخلها فقط.

وفي ضوء ما سـبق، تتَّضح الصورة المرعبة: إنَّنا لسنا أمام واقع مشوّه، وإنما أمام واقع مصنَّع بالكامـل، تُخاض فيه الحروب داخل الرؤوس، ويُعاد تشـكيل العالم وفقًا لمصالح الأقوى، لا لحقائق الوقائع. هذا الواقع يُصنع بمشـاركة نشطة – أحيانًا – من النخب الثقافيَّة التي تتواطأ في بناء الزيف أو الصمت عنه.

ثالثًا: المثقف الموظَّف وصناعة القبول

١ - تحوّلات وظيفة المثقف

في النـماذج التقليديَّـة، كان المثقّف يُفترض به أن يكون صـوت الضمير الجمعيّ، وحارس الوعي، وناقد المنظومات المُسيطِرة. من (سقراط) إلى (غرامشي- Gramsci)، ومن (الكواكبيّ) إلى (إدوارد سـعيد)، ظلّ المثقّف رمزًا للمساءلة، وأحيانًا للمجابهة. لكن في الحقبة النيوليبراليَّة وما بعدها، حدث انقلاب وظيفيّ عميق: لقد أصبح كثير من المثقّفين جزءًا من ماكينة السـيطرة على الوعي، بدل أن يكونوا أداةً لكشفها.

يشـير (غرامشي) إلى ما يسـمّيه بـ"المثقّفين العضويّين"، أي أولئـك الذين يرتبطون عضويًّا بطبقة اجتماعيَّـة معيّنة، ويدافعون عن مصالحها. لكن ما نراه اليـوم هو مثقّف وظيفيّ أكثر منه عضويًّا، لا ينتمي لطبقة محدّدة، بل يعمل لحسـاب نظام الهيمنة السـائد، سواء في الجامعات، أم الإعـلام، أم مراكز الأبحاث. وهذا المثقّف لا يقول ما يراه حقًّا، وإنما ما يُطلب منه قوله، وما يضمن له الظهور والتمويل والقَبول. وهكذا، تتحوّل مواقع المثقّفين إلى رأسمال يُستثمر داخل الحقل الثقافيّ، لتثبيت السلطة لا لمقاومتها.

٢ - مراكز التفكير وصناعة الأفكار بدل اختبارها

واحدة من أهمّ مؤسّسـات إنتاج الوعي المُعَولَم اليوم، مـا يُعرف بـ«مراكز التفكير» (Think

Tanks)، والتي تقوم بدور حاسم في صياغة السياسات العامة، وتوجيه الخطاب الإعلاميّ، وتوفير الإطار المفاهيميّ للنخب السياسيَّة والإعلاميَّة. ورغم ما تدّعيه هذه المراكز من حياديَّة علميَّة، لكنّها، في معظمها، تعمل ضمن مخطَّطات واضحة تخدم المصالح الجيوسياسيَّة للقوى المهيمنة. وهذه المراكز لا تنتج معرفة لذاتها، وإنما تمارس ما نسميه بـ "إدارة المعنى" (Management of Meaning)؛ حيث يُعاد تأطير القضايا الكبرى في قوالب مفاهيميَّة، تمُكّن النظام من إعادة إنتاج نفسه دون مقاومة.

والأخطر من ذلك، أنّ كثيراً من النخب في العالم العربيّ، باتت تُعيد إنتاج هذه الإطارات دون تمحيص، وتترجمها إلى خطاب عربيّ يروّج للانفتاح، والحريَّة، والسلام، والحوار، بينما يُفكّك كل ما يخصّ الوعي المقاوم، والهُويَّة المستقلّة، والذاكرة التاريخيَّة.

٣ - من التفلسف إلى الترفيه

مع صعود الإعلام الفضائيّ ثمّ الرقميّ، تحوّلت العلاقة بين المثقّف والجمهور. فلم يعد المثقف هو مَن يكتب للمهتمّين، وإنّما صار «نجمًا» يظهر على الشاشات والمنصّات، ويُقاس حضوره بعدد المشاهدات لا بجودة الأفكار. وهكذا، بدأ يتشكّل نموذج جديد هو "المثقّف التلفزيونيّ"، الذي يُفترض به أن يعلّق على كلّ شيء، من الاقتصاد إلى الفنّ، بلغة مبسّطة وسريعة، تُرضي الجميع ولا تزعج أحدًا. وهكذا، فحين تصبح الشاشة هي المنبر الأساس للفكر، فإنّ الأفكار تُختزل إلى صور، والمفاهيم إلى شعارات، والنقاش إلى استعراض.[1]

إنّ هذا النموذج من المثقّفين يُلهي العقول، ويُقنّعها بالسطحيّات، ويتماهى مع النظام، وتلك هي وظيفته الجوهريَّة في هندسة القَبول.

٤ - العقلانيَّة أداة للهيمنة

ثمَّة شكل آخر من المثقّفين المسيطرين على الحقل العموميّ وهو «التكنوقراطي»، أي المثقّف

1 - See: Neil Postman: Amusing Ourselves to Death, p. 16.

الذي يُقدّم نفسه بوصفه خبيرًا محايدًا، يُقوّم السياسات وفق مؤشّرات ومقاييس «علميَّة»، لكنّه، في الواقـع، يمُارس دورًا أيديولوجيًّا خفيًّا في تجميل السياسـات الظالمة، وإعادة تقديمها بلغة الأرقام والمنطق.

وهنا تكمن خطورة "الحياد العلميّ" الذي يدّعيه هذا النموذج من النخب؛ لأنّه يُفرغ القضايا من أبعادها القِيَميَّة والخُلُقيَّة، ويُعيد صياغتها باعتبارها مسـائل تقنيَّة لا سياسـيَّة. فالقمع يُصبح "إجراءً أمنيًّا"، والاستغلال "سياسة اقتصاديَّة"، والتطبيع "خيارًا استراتيجيًّا"، وهكذا.

٥ - إنتاج الهيمنة بالصمت

ليـس كلّ تواطؤ يأتي من الفعل، فالصمت ذاته قد يكون مشـاركة في مشروع السـيطرة على الوعي. فالنخب التي تملك أدوات التحليل والرؤية والتأثير، لكنّها تختار الصمت أمام المذابح، والاستلاب، والخضوع، تكون قد أدّت وظيفتها في تثبيت النظام القائم عبر الامتناع عن الفضح.

هـذا النمط من التواطؤ الصامـت، يُعبّر عنه (ثيودور أدورنـو-Theodor Adorno) بتوصيفه للمثقّف الذي يعرف أنّ العالم يسـير إلى الكارثة، لكنّه يفضّل تحليل أسـبابها من بعيد بدلاً من مناهضتها.[1]

إنّ النخبة التي تلوذ بالصمت ليست محايدة، بل تُعيد إنتاج الوضع القائم عبر تجاهله، أو عبر تحويله إلى مجرّد «واقعة عابرة» في سجلّات التحليل.

٦ - تبرير الاستسلام

ومن أخطر أدوار النخب في حروب السيطرة على الوعي، هو أنّها تُبرمج المجتمعات على تقبّل الاستسلام بوصفه حكمة، والتراجع بوصفه واقعيَّة، والخضوع بوصفه وعيًا. في هذا النموذج، لا يُصوَّر العدو قاهرًا، بل يُقدَّم على أنه "أقوى واقعيًّا"، و"لا يمكن هزيمته"، و"من العقل أن نتكيّف معه"، فيجري تجريد الشعوب من إرادة المواجهة حتى قبل بدء المعركة.

1 - See: Theodor Adorno: Minima Moralia, P.P. 39-42.

وهنا، لا تُستخدم مفردات الذلّ المباشرة، وإنما يُعاد إنتاجها بمصطلحات برّاقة: الواقعيَّة السياسيَّة، والبراغماتيَّة، وإدارة الخسائر، وتقليل الأضرار، إلخ.

فالاستعمار لا يُهزم أولاً في المعركة، بل يُهزم حين نرفض منطقه الداخلي، ونكفّ عن تبرير وجوده.

٧ - المثقّف المقاوم والحاجة إلى نموذج بديل

في مقابل كل ذلك، تبرز الحاجة إلى استعادة نموذج «المثقّف المقاوم»، لا بمعنى المزايدة أو الخطابة، بل بوصفه المثقّف الذي يتمسّك بدوره الخُلُقي في مساءلة السلطة، وفضح الهيمنة، وتفكيك الزيف، والوفاء للحق، حتّى لو كلّفه ذلك موقعه أو منصّته.

إنّ المقاومة تبدأ من الكلمة، ومن تحليل الخطاب، ومن التمسك بالبصيرة، ومن إنتاج خطاب موازٍ لا يستعير مفاهيم العدوّ، ولا يعيد إنتاج لغته. وهذه هي الوظيفة البنيويَّة للخطاب الثقافيّ في زمن التشويه.

إنّ الحروب على الوعي باتت تُخاض علنًا، وبمشاركة من نخب تملك المنابر والسلطة المعرفيَّة، لكنّها اختارت أن تُعيد إنتاج الهزيمة، لا أن تواجهها. لقد أصبحت النخبة، في كثير من الأحيان، الجسر الذي تمرّ عليه الهيمنة لتدخل إلى وعي الناس بأناقة.

ومن هنا، فإن استعادة الوعي تبدأ من تفكيك دور النخبة نفسها.

رابعًا: الوعي القرآني والفعل المقاوم

١ - من الإدراك إلى البصيرة

ليست كلمة «الوعي» واردة بنصّها في القرآن، لكنّها حاضرة بمعانيها، ومجالاتها، ومقاصدها، في عشرات المصطلحات القرآنيَّة التي تصف حال الإنسان مع الحقيقة: يعقلون، ويتفكّرون، ويتدبّرون، ويعلمون، ويفقهون، ويبصرون، ويتذكّرون... وهي مفردات تعبّر عن مواقف وجوديَّة من الحقّ والباطل، ومن الوحي والهوى، ومن الله والعالَم.

يضـع القرآن الوعي في صلب معركة الهدايـة والضلال. ومن هنا، فإنّ الوعي في القرآن ليس إدراكًا لما هو كائن، بقدر ما هو تمييزٌ لما ينبغي أن يكون. إنه بصيرةٌ نافذة لا مجرّد عينٍ ترى.

يقول تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾ [الأنعام: ١٠٤].

فـ "البصائر" هنا هي أنوارٌ تهدي، وتكشف، وتنقذ من العمى.

٢ - الباطل لا يُسقطه العقل فقط، بل النبأ اليقين

إحدى أبرز إشارات القرآن أنّ الحقّ لا يُدرك وحده عبر التفكير الحُرّ بمعزل عن النبوّة، بل إنّ النبـأ هو مفتاح التمييز؛ لذلك كان النبأ العظيم هو الـذي يقطع الطريق على الفتنة الفكريَّة، كما في قوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۝ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ۝ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ [النبأ: ١-٣].

ففي عالم "الاختلاف"، لا يكون الخلاص في النسـبيَّة ولا في الحياد، وإنما في الرجوع إلى النبأ اليقين، أي إلى الوحي بوصفه مصدرًا يقينيًّا للحقّ والمعنى.

وفي هذا السياق، لا يُعرّف القرآن "الجاهل" بأنّه من لا يملك معلومات، بل من غاب عنه النبأ، أو أعرض عن الذكر، أو غُلِّب على عقله بالهوى والظن. وهذا المعنى يتّضح في قوله تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١١٦].

فالآية إدانة صريحة لهيمنة السرديّات الكاذبة حين تسود، وتحذير من الخضوع لما يبدو "رأيًا عامًّا"؛ لأنّه قد يكون مبنيًّا على الظنّ والخُرص، لا على البصيرة والحقّ.

٣ - الوعي القرآني مقاومة للفتنة لا استسلام لها

ومن أبرز المفاهيم القرآنيَّة المرتبطة بحروب الوعي، هو مفهوم الفتنة. ومن أهم مصاديق الفتنة هو التشويش على الحقيقة، وإغواء القلب، والتزييف للواقع. ولذلك، يُقدّم القرآن الفتنة بوصفها سلاحًا يستعمله المستكبرون وأهل الباطل: ﴿لِيَفْتِنُوكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ [الإسراء: ٧٣].

إنّ الفتنة، في جوهرها، تشويشٌ على البصيرة، وتلاعبٌ بالمقاييس، وتبديلٌ للحقائق، وهي ما تتطلّب وعيًا يقظًا وموقفًا مقاومًا، لا مجرّد تأمّل ساذج في الظواهر.

ولذلك، فإن مَهمَّة المؤمن ليست في "التكيّف" مع هذه الفتنة، بل في فضحها، وتجاوزها، وفضّ اشتباكها مع الحقيقة. فالوعي القرآنيّ فعلٌ يُنتج مسارًا، وينحاز إلى الحقّ مهما بدت كثرة على خلافه.

٤ - معايير التمييز القرآني: لا تُسلّم للظاهر

يُعلّمنا القرآن ألا ننخدع بالمَظهَر، ولا بالسرديَّة المسيطرة، ولا حتى بالعلامات الزائفة للقوّة، أو النجاح، أو الحداثة. يقول تعالى: ﴿**فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ**﴾ [التوبة: ٥٥]؛ ﴿**وَإِن يَرَوْا كُلَّ آية لَا يُؤْمِنُوا بِهَا**﴾. [الأنعام: ٢٥].

وهذا يعني أنّ معيار الوعي القرآني، هو في التلقّي النورانيّ القائم على الصدق والتقوى. فالحقّ لا يُعرَف بسطوة الإعلام، ولا بكثرة المتابعين، وإنّما بما هو عليه في ذاته، وبما يوافق الوحي والعدل والفطرة. ومن هنا، فالمؤمن مطالب أن يُبقي على "غربته المعرفيَّة" في زمن الفتن، لا أن يندمج في منطق العالم ويُعيد إنتاج سرديّاته.

٥ - تقويض المنطق الجماعي الزائف

يدعو القرآن إلى مقاومة التقليد والانقياد غير الواعي، ويدين ما يُعرف اليوم بـ «القطيع المعرفيّ»، الذي يتبع السائد لمجرّد أنّه سائد. وقد ورد هذا بوضوح في قوله تعالى: ﴿**إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ**﴾ [الزخرف: ٢٢].

وهذا النمط من التبرير الاجتماعي للرؤية، هو بالضبط ما يُنتَج اليوم عبر النخب والإعلام والتعليم؛ حيث يُقدَّم النموذج الغربيّ بوصفه العقل، والتاريخ، والحداثة، ولا يُسمح بنقده إلا في الهوامش؛ لكنّ القرآن يُعيد الفرد إلى مسؤوليته، ويطلب منه أن يعقل، ويفكّر، وينظر، ويذكّر، ويتدبّر، لا أن يسلّم بحكم القطيع.

٦ - الوحي مصدر بديل للمعرفة

في مواجهة سطوة «المعرفة المصنَّعة»، يقدّم القرآن مصدرًا بديلاً للوعي، لا يخضع لتوجيه

الخوارزميات، ولا لمصالح السوق، ولا لتلاعب السلطة. فالوحي هو ميزانٌ يُفكّك الموازين الزائفة.

إنّ الرجوع إلى الوحي هو استئناف لمسارٍ أصيل من المعرفة المقاومة، التي ترفض الخضوع لهيمنة الرموز، والمؤسّسات، والتمثيلات. فهو تذكير، وتحرير، وبصيرة، ومقاومة.

إنّ الحرب على الوعي هي المعركة الحقيقيَّة التي تتوقّف عليها سائر المعارك. ومن خسر وعيه، خسر حُريَّته، ودينه، وإنسانيته.

وفي زمن كهذا، لا يكون الانتصار في الميدان إلا حين ننتصر أوّلًا في عقولنا وقلوبنا. لا بنفي الآخر، وإنما بإحياء الذات الواعيَّة، التي ترى، وتفكّك، وتُبصر، وتقاوم.

من هنا، تأتي رسالة هذا العدد من مجلة (أُمم): أن نعيد السؤال عن الوعي، لنحفر في بنية الواقع، ونفضح أدواته، ونستأنف الرؤية من مصدرها الأصيل: النبوّة والوحي والبصيرة.

وقد جمع هذا العدد من المجلَّة بين دفتيه ثمانية أبحاث، جاءت على الشكل الآتي:

في المحور كتب البحث الأوّل الأستاذ الدكتور (أحمد إيبش) عن " اللغة بوصفها أداة استعماريَّة: كيف تُشكّل اللغة وعي الشعوب وتخضعها؟». فيما البحث الثاني تصدت له الاستاذة (زكيه قرنفل) وجاء بعنوان: « إعادة تشكيل العالم: الإعلام رافعة الهيمنة الثقافيَّة الغربيَّة»، أما بحث « الهندسة النفسيَّة للمشاعر: كيف يصوغ الإعلام الحب والخوف والعداوة؟» فقد أتحفنا به الأستاذ الدكتور (أحمد نصر الله)، فيما البحث الرابع الذي جاء بعنوان: « صناعة الحقيقة: كيف تنتج مراكز الأبحاث والنخب الإعلاميَّة خطاب السيطرة؟» فقد كتبته الأستاذة (سكينة حسن)، أما الاستاذ (باقر كركي) فقد حفر في « العقل المدبّر لحروب الوعي: مراكز التفكير الغربيَّة والأذرع الاستراتيجيَّة للهيمنة».

وفي باب التأصيل، عالج الدكتور (سجاد العنبكي) "الرؤية القرآنيَّة لصناعة الوعي: العقل، والوحي، والدولة الإيمانيَّة".

وفي باب دراسات وبحوث كتب الدكتور (محمد المستاري) « نهاية وَهْم الهيمنة: في نقد خطاب القوّة المطلقة الأمريكيَّة وحدودها البنيويَّة».

وأخيراً، قدّمت لنا الاستاذة (لينا السقر) قراءة ماتعة في كتاب «احتلال العقل».

إنّنا إذ نقدّم هذا العدد في ظروف اســتثنائيَّة يمرّ بها العالَم، فإنّنا نســأل الله أن يمنّ على الأمة بالعافية، وأن يهديها بصيرتها، ويهديها إلى صراطه المستقيم.

والحمد لله أولًا وآخرًا

المصادر والمراجع:

- إدوارد سـعيد، الاستشراق، ترجمة كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربيَّة، بيروت، الطبعة الثانيَّة، ١٩٩١.
- نعوم تشومسكي، السيطرة على الإعلام، ترجمة طلعت الشايب، دار سواف، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦.
- Shanahan, Murray. The Technological Singularity, MIT Press, Cambridge, 2015.
- Paulo Freire, Pedagogy of the Oppressed, Continuum, New York, 2005.
- Shoshana Zuboff, The Age of Surveillance Capitalism, Public Affairs, New York, 2019.
- Timothy Snyder, On Tyranny: Twenty Lessons from the Twentieth Century, Tim Duggan Books, New York, 2017.
- Neil Postman, Amusing Ourselves to Death, Penguin, London, 1985.
- Theodor Adorno, Minima Moralia, Verso Books, London, 2005.